ذكرى محمد علي الاكبر

المتوفى في ١٣ رمضان سنة ١٢٦٥

« ان حكومة فرنسا تعد وجود محمد علي كقوة سياسية في العالم امراً ضرورياً لا بد منه حتى يكمل التوازن بين حكومات العالم وذلك بسبب سعة الاقاليم التي يحكمها والبحار التي تحت سلطانه »
تيبرس في ٨ اكتوبر سنة ١٨٤٠

اربعة وسبعون عاماً قرنية مضت على وفاة بطل مصر الفذ ومصر لا تزال حيث تركها مجدداً عاقمي معتمدة على نفسها لنيل حريتها التامة

اختط محمد علي لنفسه خطة الاستقلال عصر والدولة العلية قوية ذات بأس والمسألة الشرقية شائكة تدمي اليد التي تحاول مسها والبلاد المصرية في فوضى العصور الوسطى لا يمكن لزعيم ان يركن الى رأيها

لم يحفل محمد علي لشيء من تلك الصعاب التي كانت تعترض لهُ ولم ترده يوماً عن مواصلة العمل للوصول الى غرضه الاسمى بل تذرع بقوة الايمان وروح المثابرة والعزم شأن كبار الرجال مستوثقاً ان كل شيء لا بد ان يتم مع الزمن

فأخذ يضع اسس استقلال البلاد التي تبناها واقاض في حبها ولم يكن حينذاك الا والياً بسيطاً لا يميزهُ عن عشرات ممن سبقوهُ من الولاة العثمانيين الا صفة واحدة كانت مصدر قوته وينبوع ثقته وهي انهُ كان متبوئاً مركزهُ بناء على ارادة الامة التي اجتمعت طوائفها وتقابلتها في القاهرة في مايو سنة ١٨٠٥ فايدتهُ بثقة وولتهُ حاكماً عليها ثم التمست من الباب العالي تثبيت رغبتها ففعل

سار محمد علي وهو يبني استقلال البلاد سير متئد حريص على النجاح فرأى ان من اول شروط الاستقلال ايجاد وحدة وطنية متجانسة فساوى بين جميع الطوائف المصرية امام القانون ووزع عليهم الضرائب بالسواء وجعل الجيش والوظائف العامة مفتوحة امام الجميع وترك المذاهب الدينية في حرية تامة ثم شرع في تكوين جيش جديد جنودهُ من ابناء المصريين ليكون سياج النظام وباعث الثقة في الداخل ورمز القوة والوحدة الوطنية في الخارج . ولما رأى ان في البلاد فئة عسكرية ممتازة هي طائفة المماليك وهؤلاء يريدون ان تكون مصر لهم ينعمون بخيراتها ويسومون اهلها صنوف العذاب صمم على اراحة البلاد منهم

فدبر لهم مكيدة القلعة الشهيرة في مارس سنة ١٨١١ التي انتهت بقتل عدد عظيم منهم في داخل القلعة وخارجها وفي الاقاليم

محمد علي والمماليك

هنا نقف برهة ليقول التاريخ كلمتهُ . قضى محمد علي في يوم وليلة على طائفة طالما اراد الباب العالي القضاء عليها فاعياهُ الامر . قضى محمد علي عليهم ولكن لا في ميادين القتال حيث يجتنى الشرف ويبرر القتل . قضى عليهم خلسة وهم في ضيافتهِ لا فرق بين مجرم منهم وبريء . قضى عليهم فخلف في تاريخهِ نقطة سوداء اذا برزت وجودها الضرورات السياسية فلا يمكن ان تمحوها ابداً

ولكن يجب قبل الحكم الذي لا سبيل للعواطف اليهِ ان نفهم الزمن والاحوال والبيئة التي كان يعيش فيها محمد علي ونذكر سوابق الطائفة المجني عليها فلا نحكم عليهِ بمقتضى تقاليد الامم الراقية

لقد اعيا امر المماليك محمد علي الى درجة لم تدع لهُ مجالاً للتريث . فما كانت الحروب تنيهم ولا المعاهدات تربطهم ولا الوفاق يستميلهم ولا المعروف يأسرهم بل كلما هزمهم محمد علي وشتت شملهم عادوا فرفعوا رؤوسهم وجمعوا صفوفهم متحينين الفرصة للقضاء عليهِ . ويا ليتهم مع ذلك كانوا متصلين بالبلاد صلة تعود عليها بفائدة حيوية بل كانت مصالحهم الحقيقية متنافرة مع مصلحة البلاد والاهالي وكأنهم كانوا في مصر حكومة داخل حكومة اخرى تتعارض اغراضهما في كل شيء

رأى محمد علي ان مصر لا يمكنها ان تخطو خطوة واحدة في سبيل الرقي والاصلاح الاَّ اذا امنت كل خطر من جانب هذه الطائفة التي لم يكن اثر حكمها في مصر في القرون الاخيرة الاَّ الخراب والدمار والحروب والمجاعات . ورأى انهُ عما قريب سيرسل جندهُ وقوادهُ الى بلاد العرب لمحاربة الوهابيين وانهُ سيصبح من غير جيش قوي يستند اليهِ ويرهب المماليك بهِ فاذا تألبوا ربما عجز عن قهرهم وضاعت جهودهُ في مصر سدى . ورأى ايضاً ان الحكمة السياسية تقضي بان تسوي الحكومة مشاكلها الداخلية قبل ان تقوم بتنفيذ سياستها الخارجية خوفاً من ان ينال العدو منها في الخارج . وان الفظائع الهائلة التي ارتكبت في عهد حكم الارهاب بفرنسا في وقت الثورة لم يكن لها مبرر سوى تهديد العدو لحدود فرنسا

لهذه الاسباب دبر محمد علي مكيدتهُ لقوم «لو بقوا في مراكزهم لقضوا على

عدد من النفوس البريئة بقدر ما سفك محمد علي من قطرات دمائهم »

الاستقلال الاقتصادي

ولما خلا الجو لمحمد علي وامن شر المماليك واصبحت اهواء البلاد وامانيها متجانسة اتيح لهُ ان ينظر في تأسيس استقلال البلاد الاقتصادي فوزع الاراضي على الفلاحين وادخل طرق الزراعة الحديثة والمحصولات المثمرة الجديدة فزادت ثروة البلاد او ثروتهُ لانهُ كان يحتكر جلها . وزادت محصولات البلاد على حاجة اهلها فوجه عنايتهُ الى التجارة. والتجارة في الممالك لا تسير الاَّ على عكازين احدهما في الماء والثاني في اليابسة . احدهما السفن والثاني الاسواق . فعملت همة بطل مصر الشماء وشبه اسطولاً يضارع اساطيل الدول العظمى

اما بشأن الاسواق فان محمد علي يفضل جيوشهِ قد ساد البحر الاحمر شرقاً وغرباً وضمن لمصر موارد مائها وسبل تجارتها في الجنوب ففتح السودان ونظم حكومتهُ . ثم تحول على مدّ سلطانهِ في سواحل سورية لينتفع بمعادنها واحراشها ولاسيما ان مصر فقيرة من هذه الوجهة فرأى انهُ لا يمكنهُ ذلك الاَّ اذا خرج على السلطان واستقل عن تركيا . فراجع خطة الولاء الاولى التي كان يتبعها نحو الباب العالي ولم يوقفهُ عن مواصلة اغراضهِ اقل اعتبار للتقاليد الدينية او السياسية

فقامت الحرب بين التابع والمتبوع — واسبابها الظاهرية معروفة — وانتهت بفوز الجنود المصرية التي توجت اعمالها بانتصارها في موقعة قونية الشهيرة التي فتحت طريق القسطنطينية امام ابراهيم باشا القائد العام للقوات المصرية

عند ذلك تحركت دول اوربا العظمى وتوسطت لدى السلطان ونصحتهُ بان يجيب مطالب محمد علي خوفاً من تثبت نفوذ حكومة الروسيا التي استنجد بها السلطان. وعلى ذلك تم الاتفاق على صلح كوتاهية سنة ١٨٣٣ وبمقتضاهُ اصبحت سوريا واقليم اطنه تحت حكم محمد علي

المطالبة بالاستقلال السياسي

لفت تقدم مصر في عهد محمد علي انظار دول اوربا . وزاد في صيت مصر ورفعة شأنها اذ ذاك ما كسبتهُ جنودها في اوعر ميادين القتال من اكاليل النصر وما فتحتهُ من البلدان والاسواق التجارية وما شيدتهُ في ممتلكاتها من مظاهر التقدم الاقتصادي والتمدن الحديث . ولكن لم يكن هذا

في نظر محمد علي الا واسطة لغرض اسمى لا يعادلهُ مطمع ولا يغني عنهُ مال ولا تجارة وهو الاستقلال الحقيقي الذي به يمكنهُ ان يضمن سلامة حكمهِ هو وذريتهُ في مصر وملحقاتها . لذلك جمع ممثلي الدول في مايو سنة ١٨٣٨ وبأنهم عزمهُ على اعلان استقلالهِ وطلب اليهم استشارة حكوماتهم في هذا الشأن قائلاً : « لا يمكنني ان ارضى بترك ما شيدتهُ من المنافع والمرافق الحيوية بمصر طول هذه السنين مما كلفني اموالاً طائلة كالاسطول ودور الصنعة وعددها وعمالها والمدارس المتعددة والبعثات والمعاهد العلمية التي انشأتها على النمط الاوربي والمناجم التي فتحتها في سوريا لاستخراج الفحم والحديد والقنوات والطرق التي رسمتها لمصر وسوريا — لا يمكنني تركُ كل هذا للفناء في يد الباب العالي بعد موتي . وان قلبي ليتفطر كلما فكرت في ان ثمرة اتعابي ضائعة ومصيرها للفناء وان اولادي وبلادي ستصير بعد مماتي تحت رحمة الباب العالي » . فجاءهُ الرد من الحكومة الانكليزية « بان حكومة جلالة الملك ترى تنفيذ مشروع محمد علي من المستحيلات وترى من نتائجهِ المحققة الدمار للباشا » واجابت حكومة فرنسا « بانها علمت بمزيد الدهشة والاسف عزم محمد علي على اعلان استقلالهِ وان الحكومة الفرنسية سوف تضع كل العقبات التحول دون تنفيذ هذا المشروع». اما مترنخ وزير حكومة النمسا فقال « ان سلام اوربا يجب ان لا يهدد »

فلما رأى محمد علي ان حكومات اوربا لم تتهيأ بعد لقبول انفصال مقرر عن تركيا التي مسئولية ما ينجم من الحوادث على الدول وسرعان ما قامت الحرب مرة ثانية بين السلطان ومحمد علي وانتصر المصريون في هذه المرة انتصاراً خشيت معهُ اوربا ان يجر الى سقوط الخلافة العثمانية فتدخلت في المسألة فعلاً وعقدت معاهدة لندرة في ١٥ يوليه سنة ١٨٤٠ من غير اشتراك حكومة فرنسا . واضطرت الدول محمد علي الى قبول المعاهدة بالقوة فرضخ بعد مقاومة دامت شهوراً . وقبل المعاهدة في النهاية لانها حققت جزءاً من امنيتهِ العظمى وهو الاستقلال الداخلي وترك التخلص مما شملتهُ المعاهدة من القيود الى المستقبل القريب بفضل ما يبديهِ خلفاؤهُ من الحزم وحسن السياسة والسعي المتواصل في المطالبة بحق البلاد في الاستقلال التام

محمد رفعت
مدرس التاريخ بمدرسة المعلمين السلطانية